البلاغة بين التيسير والتعقيد

م.م. لقاء عادل حسين

كلية العلوم الإسلامية/ قسم اللغة العربية

جامعة بغداد

مقدمة

مرت البلاغة كأي علم بمراحل مختلفة إلى أن استقرت قواعدها، وقد كان لكل مرحلة علماء ودارسين بذلوا كل ما يستطيعون لإرساء علم البلاغة، ووضع الأسس والقواعد، ووضع علوم البلاغة وتقسيمها على ما هي عليه الآن، ثم اتجهوا لاستحداث فنون جديدة، وتجديد المصطلحات البلاغية المستخدمة، فكان وضع القواعد وأرساء علوم البلاغة الشغل الشاغل للعلماء في بداية الأمر، ثم اتجه عملهم بعد نزول القرآن الكريم إلى وضع مؤلفات في الإعجاز القرآني فانشغل العلماء به وتبنوه بالبحث والدراسة، وبعد ذلك بدأ التطور والتجديد يدخل البلاغة شيئًا فشيئًا واستمر إلى وقتنا الحاضر.

بدأ بكتاب البديع لابن المعتز (٢٩٦هـ) الذي مثل مرحلة الصفاء والتدوين، والجاحظ في البيان والبيين (٢٥٥هـ) الذي مثل مرحلة تأثير الفلاسفة والمتكلمين، ثم كتب الإعجاز والأثر القرآني في الكتب البلاغية وتوجه العلماء إليه والابتعاد عن التأليف البلاغي البحت كمجاز القرآن لأبي عبيدة (٢١٠هـ)، والنكت في إعجاز القرآن للرماني (٣٨٦هـ)، ثم الجامع البلاغي النحوي وهو مفتاح العلوم للسكاكي (٦٢٦هـ)، وانشغال العلماء بتلخيصه وشرحه كالتلخيص والإيضاح للقزويني (٧٣٩هـ) وشروح التلخيص التي مثلت لدى البعض مرحلة التيسير، ثم اتجاه العلماء حديثًا نحو الأسلوب والأسلوبية التي جاءت إلينا مع لسانيات دي سوسير، واعتقد أنها تجديد وليست تيسير.

ومن التجديد ما هو في علوم البلاغة كابتكار علم البديع، ومنه ما هو في المصطلحات كالتجديد في المحسنات البديعية وبدأ الاكثار من الاهتمام بها، ومنها ما هو في المنهج والمصطلحات كظهور الأسلوبية وغزوها للكتابات البلاغية واهتمام العلماء بها إلى الآن.

والبلاغة فن ذوقي أكثر مما هي قواعد تطبق على النصوص، وعلى أساس هذا الفهم والاختلاف معه انقسم العلماء على قسمين: قسم عدها علمًا نظريًا ثابتًا ووقف عند حد معين ثبت عليه دون أي تجديد أو تغيير حتى في الأمثلة والشواهد، وقسم حاول أن يغير في البلاغة العربية ويجدد وييسر هذا العلم إلى أن يجعله علمًا متجددًا يجد الباحث فيه الفهم اليسير وسهولة الإطلاع وإيجاد الآف المواضيع ليجعلها عنواناً لبحثه أو درسه فمنهم من

جدد في المصطلحات ومنهم من جدد في الشواهد والنصوص ومنهم من أضاف فناً أو عدة فنون، ومنهم من جدد في منهجيته.

وقد تناول البحث دراسة التعقيد وأسبابه، ثم الوقوف على مواطن التجديد والتيسير في المصادر القديمة والحديثة، والعلماء الذين أسهموا في ذلك منذ القدم إلى وقتنا الحاضر للنهوض بعلم البلاغة وجعلها علمًا متجددًا يجذب الدارسين إليه، وينبه الباحثين عن مواطن الجمال فيه والتطور البلاغي في المادة والمنهج والمصطلح.

دواعي التعقيد

قيل أنّ مفتاح العلوم للسكاكي: «أعظمُ ما صنّف فيه– علم البلاغة– من الكتب المشهورة نفعًا، لكنّه أحسنها ترتيبًا، وأتمها تحريرًا، وأكثرها للأصول جمعًا؛ ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد»[١]، فالحشو والتطويل هما من دواعي التعقيد، وقيل أن «القدماء بحثوا البلاغة بحثًا فيه روح أدبية وفيه ما يشجع على دراستها، أما السكاكي فقد بحثها باسلوب وجد التقنين إليه سبيله وحظي المنطق فيه بنصيب كبير حتى بلغت المدرسة المشرقية المعتمدة على المنطق وعلم الكلام قمتها بظهور (مفتاح العلوم)»[٢]، فيكفي البلاغة تعقيدًا إن كان المنطق يحتل المقام الأول في عمدة المصادر البلاغية (مفتاح العلوم).

وقد ذكر العلوي أن البلاغة أحوج العلوم إلى الإيضاح فقال: «إنّ مباحث هذا العلم في غاية الدقّة، وأسراره في نهاية الغموض، فهو أحوج العلوم إلى الإيضاح والبيان»[٣]، وهذه الإشارات تبين أن التعقيد ظهر في البلاغة منذ القدم، واهتم العلماء به لاسيما بعد احتلال بغداد على يد التتار إذ كانت البلاغة أحوج العلوم إلى الإيضاح والتلخيص. فظهرت التلخيصات والشروحات وشروح الشروحات لتيسير فهم هذا العلم على المتلقي، أما الدكتور أحمد حسن الزيات فقد كان رأيه مغايراً إذ ذكر أنّ علم البيان «هو الجزء النظري من فن الإقناع، والبلاغة هي الجزء العملي منه: هو ينهج الطرق وهي تسلكها، وهو يعين الوسائل وهي تملكها، وهو يرشد على الينبوع وهي تغترف منه»[٤]، فلا يرى فيها تعقيدًا.

وأضاف أنه قد كان للعرب مذهبان: معنوي ولفظي، أو مذهب أهل العراق وأهل الشام وكانا متماسين حتى أنك تلحظهما في أسلوب الجاحظ وابن العميد. وعندما فسدت الطباع صار بينهما من البعد ما بين براعة ابن خلدون وغثاثة القاضي الفاضل[٥]، فأراد أنّ

البلاغة كانت علمًا ذوقيًا يعتمد على الانسجام بين اللفظ والمعنى، ثم دخله التعقيد عندما فسد تذوقها لفظيًا ومعنويًا. وأظنه قد بالغ كثيرًا في رأيه بالقاضي الفاضل.

ومن أسباب التعقيد كما يرى بعض الباحثين هي: نشأة البلاغة في بيئة المتكلّمين والأصوليين؛ فالمصطلحات البلاغية تحددت في بيئة المتكلمين الذين كانوا قريبين من التيارات الفكرية الجديدة التي طرأت على المجتمع الإسلامي، وقد حدد هؤلاء حقبة ظهور الجاحظ كعالم ببدايات الدرس البلاغي في صورة منظمة[٦]، فالجاحظ المعتزلي (٢٥٥هـ) كان فضلاً على معرفته بعلم الكلام مُطلعًا على فلسفة اليونان، فكانت عنده البدايات الأولى أو اللبنة الأساسية لعلم البلاغة عندما تكلم عن مطابقة اللفظ للمعنى، وعبد القاهر الجرجاني (٤٧٤هـ) متكلّمٌ يحسن طرق الجدال والمناظرة، ويعد خير من مثل المتكلمين عندما درس الإعجاز في كلامه عن قضية اللفظ والمعنى ونظرية النظم وربما ما زاد تعقيده للبلاغة عندما وحد بين النحو والبلاغة عندما عرف علم النحو بأنه العلم الذي يحدد معنى الكلمة في السياق[٧]، «وقبل أن نمنح هذه الفنون حقّها من الذكر ننبهك على أصلٍ لتكون على ذكرٍ منه، وهو أنّه ليس من الواجب في صناعة وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها إلى مجرّد العقل أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكمات وضعية واعتبارات إلفية؟ فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلّد صاحبها في بعض فتواه إن فاته الذوق هناك إلى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق»[٨].

وقد بين الدكتور أحمد مطلوب أن هؤلاء المتكلمين قد تأثروا بمنطق أرسطو وبلاغته، وبالتالي نقلوا البلاغة من الذوق إلى العقل، وتأثيرهم قديم لكنه تمكن من البلاغة بعد جمود الأدب والاتجاه إلى الشروحات والتلخيصات في البلاغة، فجعلوا المنطق وأساليب الفلسفة طريقة في عرض المادة البلاغية، فأحالوها قواعد ثابتة لاتعمل إلا بالدليل العقلي[٩].

أما السبب الثاني: فهو إن أغلب علماء البلاغة هم من غير العرب، يقول ابن خلدون: «إنهم أهلُ حضارة مقارنة بالعرب، ولأنّهم احتاجوا بعد فسادِ اللسان إلى وضع القوانين النّحوية، وصارت العلوم الشرعية كلّها مَلكاتٍ في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس، واحتاجت إلى علوم أخرى، وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية، وقوانين ذلك الاستنباط والقياس، والذّبّ عن العقائد الإيمانية بالأدلّة لكثرة البدع والإلحاد»[١٠]، فـ«إذا

كانت عُجمة مع فلسفة فقد كَمُل البعد عن مجالي الفن، وروحه، بقدر البعد عن حسّ العربية، وتمثّل روحها، وإدراك مجال الجمال فيها»[١١].

فالعجمة ربما كانت من أسباب الغموض الذي انتاب البلاغة العربية، بالتالي التعقيد الذي نلحظه في الكتب البلاغية القديمة، بدءًا بالجاحظ وصولاً إلى السكاكي. غير إننا نلحظ أن التفتازاني والقزويني ساهما في تيسير البلاغة العربية من خلال الشروحات والتلخيصات على مفتاح العلوم للسكاكي، فقد لاحظا مع غيرهما من العلماء في عصر المغول صعوبة فهم البلاغة العربية، ممثلةً بكتاب السكاكي نظراً للاختلاط الذي حصل بالمغول وقلة استعمال العربية الفصحى ودخول أقوام غير عربية من الحكام والقادة والجنود.

أما السبب الثالث فهو ارتباط البلاغة بقضية إعجاز القرآن: فقد كانت الشاغل الكبير للعلماء للبحث في هذا الكتاب العظيم، وأسباب إعجازه، وهل هو معجز بالبلاغة أم بغيرها من العلوم؛ مّما زاد تعقيدها لاهتمامها بقضايا أبعدت علماءها عن التطور، وأشغلتهم بقضايا القرآن الكريم ومحاولة إثبات إعجازه بالبلاغة. ومن أمثلة هذه الدراسات: مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢٩٧هـ)، والنكت في إعجاز القرآن للرماني (ت٣٨٦هـ)، دلائل الإعجاز للجرجاني (ت٤٧١هـ).

إضافةً إلى ما ألفه واصل بن عطاء في معاني القرآن، ومؤرخ السدوسي في غريب القرآن، وقطرب في معاني القرآن[١٢].

فسارت مسألة الإعجاز القرآني بدارسي البلاغة العربية سيرًا مختلفًا عما كانوا يتوقون إليه قبل نزول القرآن الكريم، فترك العلماء علوم البلاغة والتجديد فيها واكتفوا بما ثَبُتَ منها.

والسبب الرابع: تراجع الأدب فقد بدا الأدباء يستخدمون ألفاظاً وأفكاراً لسابقيهم يعيدون صياغتها بأسلوب آخر ربما تؤدي ببعضهم إلى الإساءة إلى هذه الأفكار والألفاظ، فضلاً عن إكثارهم من فنون البديع وابتكارهم لفنون مستحدثة؛ مما دعا علماء البلاغة إلى التركيز في هذا العلم، والابتعاد أو نسيان بقية العلوم البلاغية، كالمعاني والبيان. وفي نظري أنّ ما يخص البلاغة هو البيان والبديع فقط، فالمعاني أقرب ما يكون إلى علم النحو ولعله من أسباب التعقيد أيضاً.

ولعل ما ذكره شوقي ضيف في كتابه (البلاغة تطور وتاريخ) عن هذا السبب وأثره في التعقيد والجمود البلاغي كان أبين حيث قال: «من أهم ما هيَّأ لهذا الجمود أن الأدب نفسه كان قد سرى فيه جمود شديد،...، غير أنه أخذ يزداد حدة مع الزمن لما استقر في نفوس الأدباء، من أنّ من سبقوهم استنفذوا المعاني، ولم يعد لهم إلا أن يعيدوها، مدخلين عليها صوراً من التكلف والتعقيد، وشاع ذلك في الشعر وفي الرسائل النثرية، فالكاتب والشاعر جميعًا لا يفكران فيما يقولانه، وإنما يفكران في الوسائل إليه من الصور البيانية والبديعية، وحتى هذه الصور تكررت تكرارًا مملاً، بحيث نحس كأن العقول عقمت، وكأنه لم يعد من الممكن أن نقرأ لشاعر أو كاتب أدبًا فيه ما يطرفنا أو يلذنا أو يمتعنا. ونمضي معهم حتى القرن السادس الهجري وما بعده فنحس بنضوب المعاني وأن الأدب فقد –أو كاد– كل قيمه الحقيقية من الأداء النفسي وأصبح كلامًا أجوف قلمًا يحمل شعوراً حيًا أو فكرًا خصبًا. وحتى الصور البيانية والبديعية تفقد بهائها القديم لكثرة ترددها ولما يداخلها من تعقيدات ثقيلة... وهذه الظاهرة نفسها من التكرار ومن إجاب العقول ومن الجمود نجدها تسري بين أصحاب البلاغة بعد عبد القاهر والزمخشري»[١٣]، فليس هناك «إبداع في صورة فنية، ولا اختراع في معنى وإنما كانت الصناعة هي أساس الاختراع والإبداع عندهم»[١٤].

وهذا الجمود الأدبي أثر بشكل كبير على البلاغة العربية لكون الأدب المادة المغذية للشواهد البلاغية وحتى القواعد فقد «فصل السكاكي ومن جاء بعده بين علوم البلاغة، يبدو أن هذا الفصل جاء نتيجة لركود الحياة الأدبية منذ القرنين السابع والثامن الهجريين، فلم يعد هناك إبداع في صور شعرية، بل سادت الصنعة على الإبداع، لهذا اهتم الأدباء بألوان البديع من جناس وسجع وطباق، وأسرف الأدباء في استخدام الألوان البديعية على حساب المعنى، وأدى هذا الركود إلى ركود في الدرس البلاغي واهتم به الفقهاء والمفسرون محاولين عن طريقة الكشف عن طاقات النص المختلفة متوخين بذلك التوسع في العمل التشريعي، وكان استخدامهم للبلاغة استخدامًا آليًا كما هو الحال عند أبي حيان في كتابه (البحر المحيط)»[١٥]، أي باتت البلاغة فنًا تعليميًا بحتًا.

وقد عزا أمين خولي اتجاه البلاغيين إلى المنهج التعليمي إلى الحالة الاجتماعية وأثرها بقوله في كتابه فن القول: «أنّ البلاغة العربية حينما جُعلت درسًا تعليميًا يُمارس ويُزاول بطرق مدرسية منظمة، كانت ظروفه تقضي عليه بإيثار منهج تعليمي وأسلوب بحثٍ

مدرسي له صفة واضحة معينة، هي الاتجاه إلى الناحية النظرية التعليمية التي تعتمد على الضبط العقلي، والقواعد المطّردة، والحدود الضابطة وما إلى ذلك، الأمر الذي يحقّق الغرض العام التهذيبي المحض، ولا يتحققُ معه في سهولة كثيرٌ من الغرض الأدبي العلمي الذي يُراد من تعلّم اللغة، ومعرفة أدبها وفنّها القولي، فالحالة الاجتماعية كانت تدفعُ إلى هذا المنهج، أو لا أقلّ من أنها ترجّحه»(١٦).

فإيثار المنهج التعليمي القواعدي البحت في تدريس البلاغة وتعليمها كان نتيجة طبيعية لتراجع الأدب، بسبب الظروف السياسية والاجتماعية التي طغت على البلدان العربية بعد انهيار الدولة العباسية وتولي حكم العرب من قبل غيرهم من مغول أو مماليك إلى آخر هذه الأقوام.

أما أثر الفلسفة في البلاغة فكان السبب الخامس من أسباب التعقيد حيث «أخذت تبرز في أواسط القرن الثالث الهجري بيئة جديدة في مجال البلاغة، هي بيئة المتفلسفة التي كانت تتخذ من فلسفة اليونان ومعاييرهم في البلاغة أساسًا تحتكم إليه في تقدير القيم البيانية للكلام»(١٧)، فبلاغة اليونان المتمثلة ببلاغة أرسطو والتي طغت عليها الفلسفة اليونانية هي التي زادت البلاغة العربية تعقيدًا بسبب اتجاه علماءنا نحو البلاغة اليونانية، ومحاولة الإطلاع عليها ومعرفة مافي هذه البلاغة من جديد فأدى بهم ذلك الإطلاع إلى إقحام البلاغة العربية بالفلسفة اليونانية المعقدة، و«مهما قيل في الفلسفة والمنطق وعلم الكلام فإنها أثّرت في البلاغة العربية، وفي كتبها أمثلة من ذلك التأثير، ولن نذهب مذهب المنكرين ولا مذهب المتطرّفين، وإنما نقول إن الحياة الجديدة التي عاشها العرب في العصر العباسي كانت زاخرة بثقافات مختلفة ولا بدّ أن تؤثر هذه الثقافات فيما أنتجوه، وقد رأينا أن المتكلّمين أثّروا في البلاغة وكان للفلسفة والمنطق وكتب اليونان أثرٌ لا ينكر، وفي حديثنا عن بشر بن المعتمر، والجاحظ، وقدامة، وصاحب البرهان، وعبد القاهر، ما يغني عن البيان. ولكنّ الأثر لم يكن عظيمًا في هؤلاء لأنّهم عاشوا في عصر ازدهار الأدب، فظلّت البلاغة بعيدة عن هذا التأثير العظيم»(١٨).

والبلاغة كما يبدو شهدت تعقيدًا كبيرًا بسبب الفلسفة فـ: «افتقدت هذا الإحساس الروحاني وبدأت تميل إلى التعقيد بعد اتصالها الوثيق بالفلسفة والمنطق والجمود، الذي ران على الأمة العربية بعد سقوط بغداد بيد المغول سنة (٦٥٦هـ)، وتسلط الغزاة على الأقطار

العربية، وبذلك توقف نمو الثقافة العربية واتجه كثير من المؤلفين إلى وضع كتب تعليمية تهتم بالتعريفات الجامعة المانعة، وضبط القواعد والإكثار من التقسيمات التي يضل فيها الدارس والإقلال من النصوص الأدبية وتحليلها. وأدى هذا إلى جمود الدرس البلاغي والوقوف عند منهج واحد لا يعنى بالذوق والإحساس الروحاني، وتحليل النصوص أدبيًا بقدر عنايته بالقواعد وصياغتها في قوالب ثابتة تحفظ، ولكنها لاتنمي إدراكًا ولا تهذب ذوقًا ولا تنطلق إلى آفاق الأدب الرحيبة. وكان للسكاكي أثر كبير في توقف البلاغة عند الحدود التي رسمها في كتابه (مفتاح العلوم) إذ قسمها على المعاني والبيان والمحسنات اللفظية والمعنوية وسماها وجوهًا مخصوصة يؤتى بها لتحسين الكلام»[١٩].

وهذا القرطاجني في منهاج لبلغاء أضاع لونه الجديد في التأليف كونه جنح إلى تطبيق نظريات أرسطو فنظر إلى البلاغة نظرة عقلية لا ذوقية[٢٠].

وربما كان للنقد أيضًا أثر في التعقيد البلاغي فقد مضى العلمين جنبًا إلى جنب إلى أن فصل بينهما حديثًا، ومنهم من يرى أن أثره كان إيجابيًا لكونه ساعد في تطوير البحث البلاغي كما يقول شوقي ضيف في كتابه البلاغة تطور وتاريخ: «نرى الكتابات النقدية تنشط في القرن الرابع الهجري، وكانت تخوض في مباحث البيان والبديع، وتدلي بنظرات فاحصة دقيقة، على نحو ما نرى في عيار الشعر لابن طباطبا وفيه عرض لكثير من مسائل البلاغة وخاصةً التشبيه والتعريض والمبالغة وحسن المقطع والتخلص، ولا نبالغ إذا قلنا إن كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي، تحول إلى دراسة تطبيقية للاستعارات والمحسنات البديعية في شعر الشاعرين، وبالمثل نرى علي بن عبدالعزيز الجرجاني في كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه) يتسع في الحديث عن البديع وفنونه وخاصةً الجناس والاستعارة والتشبيه البليغ»[٢١].

فهذه اسباب التعقيد، وينبغي قبل الولوج إلى سبل التيسير والتخلص من هذه الأسباب أن نلحظ اختلاف اسباب التيسير فـ«الأسباب التي دفعت الدارسين إلى تناول موضوع العربية تيسيرًا أو تسهيلاً، تجديدًا أو إحياءً، مختلفة تمامًا عن الأسباب التي دفعت أئمة العربية في عصر ازدهارها الحضاري للتصدي لهذا الموضوع بعينه تيسيرًا أو تجديدًا أو إحياءً»[٢٢]، فتيسير البلاغة في المؤلفات القديمة يختلف عنه في الحديثة بحسب فهم علماء

كل عصر، وبيئتهم، وظروفهم السياسية، والاجتماعية، والثقافية، وبحسب أسباب التعقيد في كل عصر.

ملامح التيسير في المصادر القديمة والحديثة

نجد الرازي (٦٠٦هـ) يقول عن كتابي الجرجاني: «لما وفقني الله تعالى لمطالعة هذين الكتابين (الدلائل والأسرار) التقطت منهما معاقد فوائدهما، ومقاصد فرائدهما، وراعيت الترتيب مع التهذيب، والتحرير مع التقرير»[٢٣]، ويقول ابن الأثير (٦٣٧هـ) في المثل السائر: «واعلم أيّها الناظر في كتابي أنّ مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم»[٢٤]، فيقصد الابتعاد عن التعقيد في تطبيق القواعد والاتجاه إلى تحكيم الذوق، ثم يرجعه إلى الطبع فيقول: «ومَلاكُ هذا كلّه الطبع فإنّه إذا لم يكن ثمّ طبع فإنّه لا تغني عن تلك الآلات شيئًا»[٢٥].

ويقول ابن مالك (٦٨٦هـ) عن كتابه: «فجاء كتابًا له حظّ من التحقيق، وحسن التهذيب، في مزيد الإتقان، وجودة الترتيب، على أني لم أبلغ بمقدار لفظه حجم أدنى المطولات، ولا بالتضييق على معانيه غموض أكثر المختصرات، وسميته كتاب المصباح»[٢٦]، ويتمنى العلوي (٧٠٥هـ) تميز كتابه لأنه يشمل الميسر في علم البلاغة فيقول: «أرجو أن يكون كتابي هذا متميّزًا عن سائر الكتب المصنّفة في هذا العلم بأمرين: أحدهما: اختصاصه بالترتيب العجيب، والتلفيق الأنيق الذي يُطلع الناظر من أول وهلةٍ على مقاصد العلم، ويفيده الاحتواء على أسراره، وثانيهما اشتماله على التسهيل والتيسير، والإيضاح والتقريب، لأنّ مباحث هذا العلم في غاية الدّقة، وأسراره في نهاية الغموض، فهو أحوج العلوم إلى الإيضاح والبيان»[٢٧].

ثم يتحدث القزويني (٧٣٦هـ) في تلخيصه عن التعقيد في كتاب المفتاح ويبين جهوده في ترتيبه وتسهيل تناول المادة العلمية فيه فيقول: «كان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنّفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي، أعظم ما صُنف فيه من الكتب المشهورة نفعًا، لكونه أحسنها ترتيبًا، وأتمّها تحريرًا، وأكثرها للأصول جمعًا، ولكنّه غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلاً للاختصار، مفتقرًا إلى الإيضاح والتجريد، ألفت مختصرًا يتضمن ما فيه من القواعد، ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ولم

يألُ جَهدًا في تحقيقه وتهذيبه، ورتبته ترتيبًا أقرب تناولاً من ترتيبه، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريبًا لتعاطيه، وطلبًا لتسهيل فهمه على طالبيه»[٢٨].

فنرى أن أغلب العلماء يرجعون التعقيد إلى السكاكي لطول المادة العلمية، ولعبد القاهر الجرجاني لالتزامه الشديد بالقواعد البلاغية لدرجة أن يتهمه الزيات بأنه «عقم الدهر بمثل عبد القاهر، وانقطعت الأسباب بين كتابيه وبين الزمن، فتجددت معانٍ وصور، وتولدت أغراض وأساليب، وأصبح هذان الكتابان في أول الطريق منارًا لا ترى بعده إلا إغفالاً ومجاهل»[٢٩].

أما المحدثين فنجد الدكتور أحمد مطلوب يذكر لنا أن البلاغة «ظلت سهلة ميسرة على الرغم مما في كت ابي عبد القاهر من غموض إذا قورنا بكتب أبي هلال، وابن رشيق، وابن الأثير، وكانت شفافة تنطق بالكلمة العذبة والعبارة الجميلة، والأسلوب الرفيع حتى إذا جاء القرن السادس للهجرة بدأت تفقد روحها الأدبية، وتفتقد النزعة الفنية، وتبعد عن الذوق الروحاني الذي كان عمدة البلاغيين والنقاد ولاسيما عبد القاهر الذي أكد أهمية الذوق، وإحساس النفس في إدراك البلاغة»[٣٠].

ثم نادى بجعلها قسمًا واحدًا إضافةً إلى الاهتمام بالمستوى الصوتي والألفاظ فهو هنا يضيف الناحية اللغوية لعلم البلاغة وقد بين أهمية البحث في القطعة الأدبية والأساليب والتقليل من التقسيمات وتوحيد المصطلحات وتخليتها مما علق من مصطلحات بعيدة وتحلية البلاغة بما استجد من دراسات بلاغية ونقدية وأدبية ونفسية وهو هنا يعود إلى الربط بين البلاغة والنقد ثم الاهتمام بعرض الفنون عرضًا أدبيًا وإختيار النصوص الرفيعة وتحليل النص تحليلاً أدبيًا يعتمد الإدراك والاحساس الروحاني والابتعاد عن التحليل المعقد[٣١].

ومن البلاغيين المحدثين «ظهر اتجاه جديد حاول أن ينهج بالبلاغة نهجًا جديدًا مثل (فن القول) للأستاذ (أمين الخولي) و(الأسلوب) للأستاذ (أحمد الشايب) و(قضايا النقد الأدبي والبلاغة بين القديم والحديث) للدكتور (محمد زكي العشماوي) و(الأصول الفنية للأدب) للأستاذ عبد الحميد حسن»[٣٢].

ثم نلاحظ أن الملمح الكبير في تيسير البلاغة، كما يرى بعض الباحثين هو الدراسات الأسلوبية، وفي نظري أن الأسلوبية هي ملمح من ملامح التجديد أو التطوير،

ولكن ليست من ملامح التيسير بل زادت التعقيد لأنها أقرب إلى الفلسفة وعلم الكلام، ونادى بهذا الملمح جل علماء البلاغة واعتبروه من ملامح التيسير.

وقد اعتبر بعض الباحثين أن التلخيصات والشروح من دواعي التيسير في البلاغة العربية لأنها تسهل على الدارس والقارىء فهم القواعد البلاغية التي أقرها علماء البلاغة العربية منذ القدم، فضلاً عن إيصال هذا الفن، فهذا محمد الفاضلي في مقدمة الأسرار يقول: «كان للمتأخرين من علماء البلاغة... والخطيب القزويني (٧٣٩هـ) والسعد التفتازاني (ت٧٩١هـ) فضل كبير في إيصال هذا الفن إلينا– من خلال مختصراتهم ومطولاتهم–»[٣٣].

فالتلخيص والإيضاح للقزويني، والمطول للتفتازاني، والمصباح لابن مالك، ومنهاج البلغاء للقرطاجني، كلها مصادر بلاغية معتمدة أسهمت في تيسير البلاغة من ناحية الترتيب، والإيضاح، واستخدام طرق منهجية في إعداد المادة البلاغية وطرح الشواهد والنصوص، فاعتبرها البعض تيسيرًا واعتبرها البعض الآخر زيادةً في التعقيد، فكل ما ظهر بعد مفتاح العلوم للسكاكي عُد تيسيرًا وتجديدًا.

يقول محمود شاكر في مقدمة الأسرار عن هذه المؤلفات «كانت هذه الكتب جميعًا مُنذ السكاكيّ إلى الدسوقي، تعقيدًا لبعض ما كتبه عبد القاهر في كتابيه في البلاغة، فهو أوّل من أسَّس علم البلاغة تأسيسًا بالغ الدقة»[٣٤]، ولكن هذا التأسيس لم يخلُ من التعقيد أيضًا فالترتيب أو المنهجية المتبعة في كتابيه شابها شيء من التعقيد، إضافةً إلى طريقة عرض المادة البلاغية، والألفاظ المستخدمة في ذلك.

مواطن التيسير والتجديد في البلاغة العربية

لقد «ظهرت اتجاهات عديدة تدعو إلى أهمية التجديد في البلاغة العربية وتنقيتها من كل الشوائب التي كانت قد علقت بها، فكانت ملامح ودعوات تجديدية انسابت من أقلام طائفة من الدارسين أعلاهم صوتًا الأستاذ أمين الخولي في كتابيه (فن القول) و(مناهج تجديد). وذهب فريق من المجددين من البلاغة عرفوا باسم (أصحاب الاتجاه النفسي) إلى أن التجديد يمكن أن يكون بتخفيف القواعد وتقليل الخلافات بين أصحاب الآراء المختلفة، وأن تتناول البلاغة حياة الناس وواقعهم، وأن يطلع دارسو البلاغة على علوم النفس، والأخلاق، والجمال، لكي تؤدي البلاغة رسالتها على الوجه الأكمل. ومن حركات التجديد في البلاغة العربية أيضًا ما سمّاه أصحابه بالاتجاه التربوي، ويرى أصحاب هذا الاتجاه

بضرورة التخلص من الطريقة التقليدية المتبعة حاليًا في تناول البلاغة التي لم تأخذ في الاعتبار أبسط المبادىء التربوية من حيث شروط التعلم المناسبة، والفروق الفردية للطلاب... هناك اتجاه ثالث يعرف بالاتجاه الأدبي، يدعو أنصاره إلى تخليص البلاغة من آثار الفلسفة، والجدل العقيم، والتوجه إلى دراسة الأساليب، وخصائصها، وربطها بالأدب، والإفادة من علم الجمال وأبحاث الذوق الفني وعلم النفس الأدبي في دراسة البلاغة»[٣٥]، والتيسير منه ماكان في منهج البحث البلاغي، ومنه ماكان في مصطلحاتها، ومنه ماكان في الشاهد البلاغي... الخ.

ويوضح لنا شوقي ضيف بداية التيسير فيقول: «بدأ التيسير من خلال التجديد ومحاولة التغيير في العلوم البلاغية واعتبر العصر العباسي عصرًا للنهضة الثقافية والعلمية ومنها البلاغة حيث بدأت بعلم البيان ثم أخذت تتسع وتدق في العصر العباسي الأول، بحكم التعمق في الحضارة، وفي الثقافات الأجنبية، وإتقان الموالي للعربية إتقانًا جعلهم يكثرون من ملاحظاتهم على خصائصها البلاغية ومضى كتاب الدواوين ينهضون لكتاباتهم من الآراء البيانية التي صدروا فيها عن ثقافاتهم ناثرين كثيرًا وأذواقهم الحضارية... وبين أساليبهم المولدة والأساليب الموروثة نافذين إلى ما سموه بالبديع، وهو صوب من التجديدات التصويرية والمحسنات اللفظية والمعنوية»[٣٦] فضلاً عن عناية اللغويين والنحاة بالخصائص الأسلوبية والبيانية.

وذكرنا من قبل أن التيسير والتجديد قد يكون في المنهج، فقد عني علماءنا منذ القدم بمنهجيتهم وعمدوا إلى مدها بكل ما آوتوا من قوة بكل ما يقوي متانتها من أسلوب في عرض المادة، ولغة مستخدمة، وإيفاء بالمادة أو الغرض الذي يكتبون فيه، فنجد الجرجاني في كتابيه يعد عند البعض واضع اسس علم البلاغة بما أفاده لهذا العلم بوضعه أصول النظم، وجاء السكاكي ليمد البلاغة بكتاب عد من جل الكتب البلاغية مادةً ومنهجًا ونفعًا لما فيه من تفصيل دقيق عن كل شاردة وواردة في علم البلاغة، ولكن هذه المؤلفات لم تخلُ مما يشوبها في المنهجية فالجرجاني لم يرتب مادته العلمية واستخدم ألفاظًا فلسفية ساهمت في تعقيد البلاغة، أما السكاكي فقد كان منظمًا للمادة البلاغية لكنه أقحم علم النحو في نهاية كتابه بعد علمي المعاني والبيان مما أخل في منهجيته.

أما من جاء بعدهما كأصحاب التلخيصات والشروح كالقزويني والتفتازاني وابن مالك وغيرهم فقد أسهموا في التيسير المنهجي البلاغي بترتيبهم للمادة البلاغية واختصار وحذف كل مطول يُخل بالمنهجية، فجعلوا مؤلفاتهم خالية من أي علم آخر سوى علم البلاغة، وابتعدوا عن الحشو والتطويل.

فالقرطاجني مثلاً يقيم كتابه على أقيام مستحدثة يدعوها «المناهج، وقسم المنهج إلى فصول أو فقر طويلة سماها: (معلم)، (اضاءة)، (تنوير) او (معرف)، (اضاءة)، (تنوير)»[٣٧].

ونجد العلوي في الطراز متميزًا عن غيره كونه مزج العلم والأدب، وضبط القواعد والأمثلة، وحلل تحليلاً دل على فهم متعمق لأساليب العرب، فهو المثل الأعلى لكتب البلاغة في القرن الثامن الهجري لكن تقسيماته المسرفة، وتأثره بعلم الكلام جعلته معقدًا بعض الشيء[٣٨].

أما المحدثين فقد دعا أحمد الشايب إلى وضع البلاغة وضع علمي جديد يشمل فنون المعاني والبيان والبديع والأسلوب، ويوصل بينها وبين الطبيعة الإنسانية لخدمة الأدب، ويضيف أنه قد مضت القرون ونحن نتخلف في هذا الميدان ونردد ما سُبقنا إليه[٣٩].

أما التيسير في الواضيع البلاغية فقد لاحظ الباحثين صعوبة المواضيع البلاغية في المصادر المعتمدة، وبالتالي صعوبة تطبيقها وفهمها بالنسبة للدارسين فتناولوا علوم البلاغة فحصًا وتنقيبًا لتيسير مادتها كما فعل ذلك القزويني، وابن مالك، والسيوطي، وابن قيم الجوزية، وغيرهم وقد ذكرنا ذلك سابقًا عندما تحدثنا عن التيسير في المصادر البلاغية قديمًا وحديثًا.

ونرى مثلاً فصل علم البديع وجعله علم ثالث مستقل بذاته كما فعل القزويني في الإيضاح بعد أن كان من ضمن علمي البلاغة المعاني والبيان في مفتاح العلوم.

ومن دعاوى التيسير في المنهج «ميل النقاد واللغويين إلى التعامل مع القطعة الأدبية بوصفها وحدة متكاملة، فلم يعد التعامل مع النص على أساس الجملة، أو البيت الشعري وإنما أصبح التعامل على أساس الفكرة، لأن ذلك يتماشى مع النظرة الجديدة للدرس البلاغي. والنظرة الجديدة للدرس البلاغي تنطلق من كون البلاغة جزءًا لا يتجزء من الأدب

والنقد الأدبي، فالأدب مادة البلاغة، والنقد هو المقوم لعمل الأديب على الصعيدين الأدبي والبلاغي»[٤٠].

وقد كان التيسير في المصطلحات من خلال التجديد في فهم المادة البلاغية وعرض التطور الذي لحق بكل مسألة من المسائل البلاغية منذ البدايات الأولى إلى العصر الذي يكتب فيه المؤلف كتابه «والحقّ أنّ العلوي قد شغل جزءًا كبيرًا من كتابه في مناقشة البلاغيين في تعاريف هذا العلم- البلاغة-، وبيان ماهياته، وتحديد مسائله، وناقش البلاغيين وخطّأهم جميعًا فيما ذكروه من حدود، ولم يسلم واحدٌ منهم حتّى الجرجاني الذي أسّس هذا العلم- كما يقول العلوي- لم يكن تعريفه مبرأً من عيب، والملاحظ أنّ مناقشاته لهم، وبيانه وجه الفساد فيما ذكروه كانت مبنية على معرفة دقيقة، بما يجب أن يتوفّر في الحدود من الشروط والقيود»[٤١]، ومن قبله القرطاجني الذي كانت له من المصطلحات التي لم يألفها البلاغيون من قبله[٤٢].

ومن المحدثين الدكتور أحمد مطلوب الذي يعتقد أن المصطلحات البلاغية لم تحضَ بـ«دراسة وافية تظهر تطورها التاريخي، وكان كتابنا (البلاغة عند السكاكي) و(القزويني وشروح التلخيص) قد أوضحا بعض جوانبها والما بتطورها، وظلت كثير منها تنتظر كتابًا جديدًا يجمع شتاتها ويسلك متفرقها، فكان كتابنا الجديد مصطلحات بلاغية الذي حاولنا فيه أن نطبق المنهج التاريخي على مصطلحات الفصاحة والبلاغة والمعاني والبيان والبديع، لأنها المصطلحات الكبرى التي تحتاج إلى دراسة قبل غيرها»[٤٣]، ونادى بتقليل المصطلحات والاكتفاء بالمهم منها، والأكثر دلالة على الأسلوب العربي، وضرب لنا مثلاً بالمجاز فلا حاجة عنده لتقسيمه إلى أنواع مختلفة بل يكفي التقسيم اللغوي والعقلي كالجرجاني، أو لغوي فقط كالسكاكي[٤٤].

أما التجديد في الشاهد البلاغي فيُعتقد «إن نمو البلاغة العربية في القديم ملمح من ملامح حيويتها وقدرتها على استيعاب الجديد، فضلاً عن أنها لم تتوقف عند عصر الاستشهاد في الأمثلة التي ذكرتها، وإنما تجاوزته وواكبت الأدب، وفي البديعيات نصوصٌ جديدة لم تذكرها كتب البلاغة الأولى، وهي نصوص تمثل العصر الذي أُلفت فيه، وقد استخرج البديعيون منها فنونًا جديدة وهي على الرغم مما قيل فيها صورة لأدب تلك العهود

وما أجدر بالمعاصرين أن يستخرجوا من الأدب الحديث فنونًا جديدة تلائم روح العصر وتضفي على البلاغة ثوبًا جديدًا وتيسر فهمها»[٤٥].

وقد ساهم ظهور علم البديع في تيسير الشواهد والنصوص وتجديدها، أضافة إلى الفنون والأغراض الأدبية المستحدثة التي تتغير في كل عصر بحسب الظروف المحيطة بذلك العصر مما يمد البلاغة بشواهد جديدة إضافةً إلى الموروث، ويظل مع ذلك الشاهد القرآني هو عمدة الشواهد والنصوص البلاغية وأساسها، ومن الكتب التي جمعت بعض التجديد في الشواهد كتاب خزانة الأدب للحموي فهو زاخر بالأمثلة والشواهد الموروثة والجديدة في عصره، فالاهتمام بالشواهد وتيسيرها منذ القدم فقد «كان عبد القاهر يكثر من الأمثلة وتحليلها والشواهد وشرحها، ويستخدم لذلك الوسائل المعينة»[٤٦].

ونرى بعض الباحثين يدعو إلى «اختيار الأمثلة والشواهد الرائعة من القرآن الكريم وكلام العرب البليغ، ونهتم بتحليل الأمثلة تحليلاً أدبيًا يعتمد على الإدراك والإحساس الفني»[٤٧]، أي البعد عن التقييد المعقد والاتجاه نحو الذوق والإحساس في تحليل الشاهد.

جهود العلماء قديمًا وحديثًا في التجديد والتيسير

شغف علماء العربية منذ القدم بهذا الفن الذوقي الراقي، فأصلوا قواعده ووضعوا له الأمثلة والشواهد بدأً بالشاهد القرآني وانتهاءًا بالشعري والنثري، وعندما أحسوا بدخول التعقيد إليه عمدوا إلى تيسيره، فزعموا أنه بدأ بالجرجاني في كتابيه ومنذ لك الوقت إلى الأن والعلماء مشتغلون بتيسير هذا العلم للإفهام، فمنهم من أصاب وأجاد ووفق، ومنهم من وقع في مسائل تزيد من التعقيد.

وإليك هذا الجدول المتتبع لأمثلة من جهود البلاغيين عبر المراحل التاريخية المختلفة في البلاغة العربية تجديدًا وتيسيرًا:

ابن المعتز (٢٩٦هـ) (البديع)	الذوق والصفاء في اختيار الأمثلة والشواهد[٤٨].
عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) (اسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز)	وضعه لنظرية النظم[٤٩]، وهذا تجديد في الموضوعات لكن النظم أقرب إلى النحو ولمنطق فربما عقد بعض الشيء في البلاغة

	العربية.
ابن الزملكاني (٦٥١هـ) (التبيان في علم البيان المطلع على أعجاز القرآن)	امتاز كتابه بالتبويب والتنسيق وجمع المسائل المتفرقة على شكل أبواب وفصول، لكنه ردد وعرض آراء وأمثلة الجرجاني[٥٠].
الرازي (٦٠٦هـ) (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)	اول من تحدث عن دلالة اللفظ على المعنى وتقسيمها الى وضعية ونقدية، لكنه وقع في خطأ إقحام الألفاظ الفلسفية والمنطقية والكلامية[٥١].
القرطاجني (٦٨٤هـ) (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)	جدد في المصطلحات والمنهج فقسم كتابه إلى (مناهج)، وقسم المنهج إلى فصل أو فقرة طويلة (معلم، إضاءة، تنوير، أو معرف، إضاءة، تنوير)، ووقع في خطأ تطبيق نظريات أرسطو على النماذج الأدبية[٥٢].
العلوي (٧٤٩هـ) (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)	جدد في المنهج فاتبع الدقة في الشواهد والأمثلة، فيأتي بمجموعة بعد كل فصل ويقسمها إلى أقسام، آيات ثم احاديث ثم كلام وخطب ثم شعر أصحاب المنزلة الرفيعة من الشعراء، لكنه وقع في سيطرة المنطق والاستدلال والتقسيمات المفرطة[٥٣].
ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) (المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان)	انفرد عن العلماء في المنهج فيضع لكل موضوع منهجًا يتحدث فيه عن كل مسألة، وأشار إلى موضوعات لم يتنبه إليها البلاغيون بل النقاد، كالجزالة والرذالة،

	والسهل الممتنع، والرشاقة والجهامة[٥٤]، فهذا تجديد في المصطلحات وإن كانت نقدية أكثر مما هي بلاغية.

فالجدول يبين لك بعض التطورات التاريخية التي قام بها علماء البلاغة سواء كانت ميسرة أم زيادة في التعقيد، وسواء كانت ميسرة دون الوقوع في معقدات أخرى أم لا.

أما المحدثين فممن دعا إلى التجديد والتيسير البلاغي وكان له الجهد في وضع ذلك في مؤلفات أفادت البلاغة العربية كـ:

- أمين الخولي في كتابه (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب).
- أحمد مطلوب في بحثه الموسوم بـ(تيسير البلاغة) في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، وبعض الإشارات خاصةً في خاتمة كتابه (البلاغة عند السكاكي) فقد تعرض لجهود المحدثين في تيسير البلاغة من كافة النواحي، وكتابه (مناهج بلاغية)، وعرض للمصطلحات في كتابه (معجم مصطلحات بلاغية وتطورها).
- وممن أشار إلى ذلك أيضًا وتتبع التطور البلاغي الدكتور شوقي ضيف في كتابه (البلاغة تطور وتاريخ)، لكنه لم يتناول الشيء الكثير عن المحدثين.
- وأحمد حسن الزيات في كتابه (دفاع عن البلاغة).
- و(دروس في البلاغة وتطورها) لجميل سعد.
- و(البلاغة العصرية واللغة العربية) لسلامة موسى.
- (نحو منهج جديد في البلاغة والنقد) لسناء حميد البياتي.
- (البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي) لمحمود البياتي.
- (المدخل إلى دراسة البلاغة العربية) للسيد أحمد خليل.

إضافةً إلى الكتب التي تناولت الأسلوب والأسلوبية فهي من دواعي التجديد ككتاب (الأسلوب) لأحمد الشايب، و(الأسلوبية والبيان العربي) لمحمد عبد المنعم، ومحمد السعدي.

وسنأخذ مثلاً للتطور والتجديد عن الكناية لعالمين عربيين كنموذج وهما عبد القاهر الجرجاني، وابن الأثير، فقد ذكر أحد الباحثين أن عبد القاهر الجرجاني أثرى «أسلوب الكناية بدراسة تقوم على الفهم لدلائل التراكيب وخوافيها ويغوص (عبد القاهر) في نصوص الكناية

ليخرج منها بمعان فاتت من سبقه وعجز عن مثلها من لحقه، فالنصوص الكنائية أصبحت فنًا ينبض بالحركة والحياة، فالجرجاني يستخرج منها أشكالاً أدبية حية ثم يناظر بينها ويفاضل، مطبقًا فيها نظريته التي تقوم على نظم الكلام وتركيبه»[٥٥]، فـ«وجد من الدراسة عند عبد القاهر مالم يجده عند غيره، ومن الاستقراء والتتبع والبحث مما جعله يسوق الحديث فيه ويقف عند كل نقطة فيه تمثل عملاً أدبيًا قيمًا وتعطيه شكلاً فنيًا جديدًا فيقتلها بحثًا بعد أن يضع لها الأمثلة والشواهد التي يفصح بها عن رأيه وقصده»[٥٦].

وقد حدها بـ«بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومىء به إليه ويجعله دليلا عليه مثال ذلك قولهم هو طويل النجاد يريدون طويل القامة وكثير رماد القدر يعنون كثير القرى وفي المرأة نؤوم الضحى والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود وأن يكون إذا كان أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد وإذا كثر القرى كثر رماد القدر وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى»[٥٧].

أما ابن الأثير فقد «وجدنا للكناية دراسة وافية عند (ابن الأثير) في كتابيه (الجامع الكبير) و(المثل السائر) وهي عنده من لطيف القول مقصورة على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانبًا. والتميز في دراسة (ابن الأثير) للكناية في كتابيه باد للمتأمل فيهما، فالتعريف لها مختلف وكذلك التقسيم، فكثير من أفكاره التي عرضها في موضوع الكناية في (الجامع الكبير) ضعفها في (المثل السائر)»[٥٨]، وقد حدها بـ«أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز»[٥٩]، وجاء بما لم تعهده الكناية سابقًا كطرحه لـ«مسألة الكناية بين الحقيقة والمجاز، فهي عنده من أنواع المجاز لأنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز»[٦٠].

الخاتمة

انتهى البحث إلى أن البلاغة العربية قد مرت بمراحل غاية الأهمية في التيسير والتعقيد فقديمًا سعى العلماء إلى وضع أسسها وضبط قواعدها فركزت هذه الأصول بجهود علمائها، وثبت منهجها بأبي عبيدة، والفراء، والجاحظ، والجرجاني، والسكاكي وغيرهم، ثم بدأ العلماء تدريجيًا يتنبهون إلى ضرورة تيسير مادتها، وتنظيمها وعدم وضعها في قالب القاعدة العلمية، فجددوا في المنهج والموضوع والمصطلح والشاهد البلاغي.

وعرفنا أن أسباب التعقيد متعددة منها نشوء البلاغة أو ظهورها في مرحلة من المراحل المتقدمة في بيئة المتكلمين والفلاسفة وأقحامهم ألفاظ علم الكلام والفلسفة في البلاغة أثناء تأليفهم للكتب البلاغية وتأثير بيئتهم وأفكارهم على ما يكتبون كالجاحظ، والرازي، والجرجاني، وانشغال العلماء بالإعجاز القرآني وابتعادهم عن التأليف القواعدي البلاغي كأبي عبيدة، والرماني، وجمود الأدب وابتعاده عن مواكبة الجديد، وانضمام النقد للبلاغة جنبًا إلى جنب في المباحث والفصول مما زاد في التعقيد.

وقد كان لأرسطو والبلاغة اليونانية الأثر الأكبر في ذلك مما زاد في الغموض والتعقيد البلاغي، فالإطلاع على الثقافات يجب أن يكون بعيدًا عن التقليد وعدم هجر الأصل العربي.

إضافةً إلى إن من تعاطى البلاغة ليس من أهل الصناعة كما قال أحمد حسن الزيات «آفة الفن الكتابي أن يتعاطاه من لم يتهيأ له بطبعه ولم يستعن عليه بأداته. وأكثر المزاولين اليوم لصناعة القلم متطفلون عليها...؛ ومن هنا شاع المبتذل وندر الحر، ونفق الرخيص وكسد الغالي، وكثر الكتاب وقلت الكتابة»[٦١] بمعنى أن البلاغة قد دخلها التعقيد لأنه قد دخلها من ليس أهل أن يتعاطى الكتابة فيها إضافةً إلى إن من كتب مادتها وشواهدها ليس أهل لأن يكون مادةً بلاغية.

وأنا مع التيسير في المصطلحات، والتنويع في الشواهد والنصوص. فهذا التنويع في الشواهد والنصوص ينمي عقول الدارسين والطلبة، ولا يحدد عقولهم واتجاهاتهم في اتجاه واحد، ولا يؤثر على البلاغة كعلم له تاريخه ومكانته المرموقة، فهذا التيسير يطور العلم، ويجعله يبدو كعلم جديد. ومن المقترحات التي أرجو أن تنفذ في الأقسام التي تدرس اللغة العربية ومن قبل مدرسي هذه المادة، أن تنوع النصوص والشواهد الشعرية التي تكون مادةً للتطبيق، وأن لا يلزم الطالب فقط بحفظ هذه النصوص وإنما ينمى ذهنه بتحضير نصوصٍ

قرآنية أو شعرية غير المنهجية، وأن يدرس التطورات التاريخية للمصطلحات البلاغية، ويطلع على التسميات المتعددة لكل فن، ومن هو مطلق كل تسمية لكي نجدد ونيسر دائمًا في المواد الدراسية ولا نجعلها جافةً مملة.

وينبغي أن نلحظ أيضًا أن هناك اختلاف بين التجديد والتيسير فهناك تجديد معقد، وتجديد ميسر، والبلاغة العربية مرت بمراحل كثيرة ضمت كل مرحلة من مراحلها تجديدًا وتطويرًا في المناهج والمصطلحات والمواد البلاغية، بعضها يسر ماعقده السابق له ووفق في ذلك، وبعضها لم يوفق وزاد من التعقيد البلاغي.

الهوامش

(١) التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي، ط المكتبة التجارية بمصر، (د.ت): ص٢٢.

(٢) البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، مطابع دار التضامن، بغداد، ط١، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م: ص٢٦٨.

(٣) الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م: ١/ ٦.

(٤) دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، ط٢، ١٩٦٧م: ص٢٩.

(٥) ينظر المصدر السابق: ص٣٢.

(٦) ينظر علوم البلاغة: محمود أحمد، محمد صايل، محمود مهيدات، دار الهلال، ١٩٩٠م: ص٣٣ و٣٤.

(٧) للإطلاع على أثر المتكلمين راجع علوم البلاغة: ص٣٣- ٣٦.

(٨) مفتاح العلوم، السكاكي (٦٢٦هـ)، مطبعة مصطفى الحلبي، ط١، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م: ص٨١.

(٩) ينظر مناهج بلاغية: ص٩.

(١٠) المقدّمة، عبد الرحمن ابن خلدون (٨٠٨هـ)، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م: ص٤٢١، ٤٢٢.

(١١) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، دار المعرفة، ط١، ١٩٦١م: ص١٣٠.

(١٢) ينظر علوم البلاغة: ص٢٩ و٣٠.

(١٣) البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ط دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م: ص٢٧٢.

(١٤) المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، السيد أحمد خليل، دار النهضة العربية، بيروت– لبنان، ١٩٦٨م: ص١٣٠.

(١٥) علوم البلاغة: ص٣٨.

(١٦) فن القول، ط دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م: ص٧٠ – ٧٢.

(١٧) البلاغة تطور وتاريخ: ص٣٦٩.

(١٨) مناهج بلاغية: ص٢٤٣.

(١٩) تيسير البلاغة للدكتور لأحمد مطلوب، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، تموز ١٩٩٨م: المجلد الثالث والسبعون، ٣/ ٨٦٤.

(٢٠) ينظر مناهج بلاغية: ص٢٦٠.

(٢١) البلاغة تطور وتاريخ: ص٣٧١.

(٢٢) تيسير تعليم العربية في التراث، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مايو ١٩٨٦م: ٣٤/٥٨.

(٢٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٥م: ص٧٥.

(٢٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشعر، ابن الأثير (٦٣٧هـ)، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت): ٣٨/١.

(٢٥) المثل السائر: ١/ ٤٠.

(٢٦) المصباح في المعاني والبيان والبديع، بدر الدين ابن مالك (٦٨٦هـ)، تحقيق حسين عبد الجليل يوسف، ط مكتبة الآداب، القاهرة (د.ت): ص٣.

(٢٧) الطراز: ١/ ٦.

(٢٨) التلخيص في علوم البلاغة: ص٢٢، ٢٣.

(٢٩) دفاع عن البلاغة: ص٤٠.

(٣٠) تيسير البلاغة، للدكتور أحمد مطلوب، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق: ص٨٦٣.

(٣١) راجع تيسير البلاغة، للدكتور أحمد مطلوب، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق: ص٨٨٠-٨٨١.

(٣٢) الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، محمد الحسن علي الأمين، الفيطية، مكة المكرمة، ١٩٨٥م: ص٩٣.

(٣٣) مقدمة أسرار بتحقيق محمد الفاضلي.

(٣٤) مقدمة محمود شاكر في أسرار البلاغة للجرجاني، ط دار المدني بجدة، ١٩٩١م: ص٢٦.

(٣٥) تدريس البلاغة العربية رؤية نظرية تطبيقية محوسبة، عبد الرحمن الهاشمي، فائزة محمد العزاوي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ص١٤٨ و١٤٩.

(٣٦) البلاغة تطور وتاريخ: ص٣٦٨.

(٣٧) مناهج بلاغية: ص٢٦٠.

(٣٨) ينظر مناهج بلاغية: ص٢٧٤.

(٣٩) ينظر الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م: ص٣٩.

(٤٠) تدريس البلاغة: ص١٥٠ و١٥١.

(٤١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، (د.ت): ص٥٩٤.

(٤٢) ينظر مناهج بلاغية: ص٢٦٠.

(٤٣) مصطلحات بلاغية، أحمد مطلوب: ص٧.

(٤٤) ينظر البلاغة عند السكاكي: ص٤٠٥.

(٤٥) تيسير البلاغة، مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق: ص٨٨٠.

(٤٦) معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، الدكتور محمد بركات، دار الفكر، الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م: ص١١٤.

(٤٧) البلاغة عند السكاكي: ص٤٠٦.

(٤٨) ينظر البلاغة تطور وتاريخ: ص٧٥.

(٤٩) ينظر مناهج بلاغية: ص١٠٢.

(٥٠) ينظر المصدرالسابق: ص١١٧.

(٥١) ينظر المصدر السابق: ص٢٤٦.

(٥٢) ينظر السابق: ص٢٦٠.

(٥٣) ينظر السابق: ص٢٧٢ و٢٧٤.

(٥٤) ينظر السابق: ص٧٥، ٧٧.

(٥٥) الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، محمد الحسن علي الأمين، الفيطية، مكة المكرمة، ١٩٨٥م: ص٤١.

(٥٦) الكناية: ص٤١ و٤١.

(٥٧) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، (د.ت): ص١٠.

(٥٨) الكناية: ص٧٧.

(٥٩) المثل السائر: ص٢٦٥.

(٦٠) الكناية: ص٨٠.

(٦١) دفاع عن البلاغة: ص٤٣.

المصادر والمراجع

١. الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٢. أسرار البلاغة، للجرجاني، تحقيق محمود شاكر، ط دار المدني بجدة، ١٩٩١م.

٣. البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ط دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.

٤. البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، مطابع دار التضامن، بغداد، ط١، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
٥. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، (د.ت).
٦. البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، فضل حسن عباس، دار النور، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
٧. تدريس البلاغة العربية رؤية نظرية تطبيقية محوسبة، عبد الرحمن الهاشمي، فائزة محمد العزاوي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٨. التلخيص في علوم البلاغة، القزويني، ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي، ط دار الفكر العربي، (د.ت).
٩. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، (د.ت).
١٠. دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م.
١١. الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
١٢. علوم البلاغة، محمود أحمد، محمد صايل، محمود مهيدات، دار الهلال، ١٩٩٠م.
١٣. فن القول، أمين الخولي، ط دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م.
١٤. الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، محمد الحسن علي الأمين، الفيطية، مكة المكرمة، ١٩٨٥م.
١٥. المثل السائر في أدب الكاتب والشعر، ابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).
١٦. مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق، تيسير البلاغة لأحمد مطلوب، ج٤، مجلد ٧٣، سنة ١٩٩٨م.
١٧. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، تيسير تعليم العربية في التراث، ج٥٨، مايو ١٩٨٦م.

١٨. المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، السيد أحمد خليل، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، ١٩٦٨م.
١٩. المصباح في المعاني والبيان والبديع، بدر الدين ابن مالك، تحقيق حسين عبد الجليل يوسف، ط مكتبة الآداب، القاهرة (د.ت).
٢٠. مصطلحات بلاغية، أحمد مطلوب، مكتبة العاني، بغداد، ط١، ١٩٧٢م.
٢١. معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، الدكتور محمد بركات، دار الفكر، الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.
٢٢. مفتاح العلوم، السكاكي (٦٢٦هـ)، مطبعة مصطفى الحلبي، ط١، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.
٢٣. المقدّمة، ابن خلدون، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٢٤. مناهج بلاغية، أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات الجامعية، الكويت، ط١، ١٩٧٣.
٢٥. مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، دار المعرفة، القاهرة، ط١، ١٩٦١م.
٢٦. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الرازي، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.